الباب الثاني عشر

فلسطين خلال العصر المسيحي

يمكن القول إن العصر المسيحي بفلسطين يمتد منذ ميلاد السيد المسيح حتى ظهور الإسلام. وقد لاقت المسيحية بفلسطين صعوبات كبيرة من الإمبراطور والديانات الوثنية الكنعانية والديانة اليهودية ثم زالت هذه الصعوبات بعد أن اعترف قسطنطين بالمسيحية عام ٣١٢ ودخلت فلسطين تحت الحكم البيزنطي، ومن ثم أصبحت فلسطين كلها مسيحية.

ونستطيع أن نقسم الفترة منذ ميلاد السيد المسيح حتى الفتح الإسلامي إلى قسمين:

١-فترة الحكم الروماني-اضطهاد المسيحية.

٢-فترة الحكم البيزنطي-فترة الاعتراف بالمسيحية.

أولاً-فترة اضطهاد المسيحية:

ولد النبي عيسى بن مريم (عليه السلام) حوالي عام ٦ ق. م وفي ذلك

الوقت كانت فلسطين جزءاً من سوريا وتخضع للإمبراطورية الرومانية ولم تمت دعوته حيث قام أتباعه بتسجيل تعاليمه وأعماله في كتب تعرف اليوم باسم الأناجيل، وهي التي تبين لنا حياة سيدنا عيسى. وقد اعتنق الديانة المسيحية الكثير من الفلسطينيين وكذلك بعض اليهود، الذين كانوا يقيمون بين أهل فلسطين في القدس كأية جالية أجنبية.

واستطاع الآباء المسيحيون، الأوائل وخاصة "بولس" أن يوصلوا هذه الديانة إلى سكان الإمبراطورية الرومانية. وذلك بأن أعطوها الصبغة الهيلينية، والذي ساعدهم على ذلك هو معرفتهم باللغة اللاتينية، فأهل فلسطين كانوا يعرفون الآرامية واليونانية خلال العصر المسيحي وخاصة أيام الرومان. وهذا أدى إلى سرعة انتشار الديانة المسيحية خاصة في اليونان وروما. وتبعاً لذلك ظهرت جماعات مسيحية في اليونان وروما لم تؤد واجباتها للآلهة الوثنية، فبدأ ما يعرف في التاريخ "الاضطهاد المسيحي"(١).

والمعروف أن اليونان والرومان كانوا يؤمنون بآلهة متعددة، وكانوا متسامحين مع أصحاب الديانات الأخرى الوثنية، لأنهم كانوا يحترمون آلهتهم، ولكن أصحاب الديانة المسيحية لم يشاركوا في الأعياد الدينية الوثنية، وأعياد الإمبراطورية فبدأ الاضطهاد.

وكان أول اضطهاد هو محاولة قتل المسيح عليه السلام على يد اليهود عام ٢٧-٢٩م، ثم إبادة المسيحيين بعد حريق روما الشهير في عهد نيرون عام ٦٤ م، ثم بعد ذلك حكم على بولس بالموت صلباً في روما عام ٦٧ م في عهد نيرون أيضاً، ثم أصبح المسيحيون في جميع أرجاء الإمبراطورية يقتلون ويضطهدون،

وخاصة عندما تحل كارثة أو وباء أو مجاعة أو قحط في أي بلد من أنحاء الإمبراطورية الرومانية، حيث كانوا يعزون ذلك إلى المسيحيين.

واستمر الاضطهاد، ففي عام ٣٠٣م أصدر ديوكليتان أمراً بإزالة الكنائس المسيحية وحرق جميع كتبها الدينية. وطرد كل مسيحي من وظيفته وحرمانه من العمل في أي وظيفة، وأصبحوا يعاملون كخونة، إذا لم يقدموا مراسم الاحترام للآلهة. وقد تفننوا في قتل المسيحيين، من أجل ذلك فإن كثيراً من المسيحيين تعرضوا للهلاك والتعذيب وخاصة عرب فلسطين ولهذا فإن كثيراً منهم اضطروا لترك الديانة المسيحية والعودة لديانة الأجداد الكنعانية، ومن بقي منهم مسيحياً فقد كتم أمره عن أقرب الناس إليه، ولذلك كانوا يجتمعون في أماكن بعيدة عن الرؤيا مثل الكهوف والمغارات، وأي منزل عادي بعيد عن أنظار الناس.

من هنا لم تقم لهم أماكن عبادة علنية خاصة بالدين المسيحي الأمر الذي جعل فنونهم لا تختلف عن فنون الأجداد الكنعانيين، فالكنيسة في فترة الاضطهاد كانت عبارة عن منزل أو معبد كنعاني، ولهذا فإن طراز الكنيسة الأول بفلسطين هو طراز المعابد الكنعانية والتي يعود تاريخ ظهورها إلى ٦٨٠٠ق.م.

وكان أقدم بيت بفلسطين حول إلى كنيسة عام ٢٠٠ م وعثر عليه في مدينة دورا على الشاطئ الشمالي الفلسطيني، وعثر في نفس المدينة على كنيسة تعود إلى منتصف القرن الثالث وبه باب خاص بالنساء، وكذلك مقاعد خاصة بهن، وعثر أيضاً على بقايا كنيسة في دورا يعود إلى ٢٣٢م، وهي أقدم كنيسة عرفت بفلسطين، بل وتعتبر "أقدم كنيسة مسيحية عثر عليها"(٣).

ثانياً: فترة الاعتراف بالمسيحية:

عندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين، قسم يحكم في روما ويعرف بالإمبراطورية الرومانية الغربية، وقسم يحكم في القسطنطينية، ويعرف بالإمبراطورية الشرقية البيزنطية، ويذكر المؤرخ فيليب حتى: إن سوريا الجنوبية "فلسطين قد أصبحت تابعة للإمبراطورية البيزنطية، وقد قسمت إلى ثلاثة أجزاء: فلسطين الأولى وكانت قيصرية مدينتها الرئيسية، ضمت أورشالم، نيابوليس–جوبا "يافا" عسقلان–غزة، وغيرها من المدن. وفلسطين الثانية ومركزها سكيثو بوليس "بيسان" ومدنها الرئيسية جدرة–طبرية. ثم فلسطين الثالثة وكانت البتراء مدينتها الرئيسية وتضم جنوب فلسطين وشمال الجزيرة العربية والبتراء وما حولها" ويذكر أيضاً أن البلاد أصبحت كلها مسيحية، وسيطر على العصر بوجه عام الروح الدينية، وأصبحت الكنيسة مكان المعابد القديمة الكنعانية، وأصبح للقديسين شأن كبير واحتلوا مكان كهنة المعابد. وقد نالوا احترام الناس واهتموا ببناء مراكز ثقافية تنشر تعاليم المسيح، ففي مدينة غزة في الجنوب برز منها المؤرخ الكنسي اليوناني "سوزمين، سوزمينوس" في القرن الخامس الميلادي. وفي شمال فلسطين قيصرية التي ينتسب إليها يوسيبيوس وهو أول مؤرخ كنسي عظيم، كذلك المؤرخ بروكوبيوس والكثير من القديسين ومنهم (جيروم) وهو من قرية بالقرب من غزة(٤).

بعد الاعتراف أصبحت فلسطين تابعة للإمبراطورية البيزنطية، وبنيت كنائس كبيرة على طراز الباسيليكا، وهي عبارة عن مبنى ضخم مستطيل كان يستخدم زمن الرومان كمحاكم قضائية أو مكان للأعمال التجارية، وكان يوجد به ثلاث قبلات ولا تقل في الغالب عن قبلة واحدة كبيرة وعظيمة والقبلة فسحة دائرية(٥).

والواقع أن نظام القبلات الثلاث، قد ظهر بفلسطين في معبد أريحا منذ ٦٨٠٠ ق. م. إذن فالرومان قد نقلوه عنا وأسقف الكنائس كانت عبارة عن جمالونات خشبية تغطي بالقرميد، وأسلوب الجمالون قديم كنعاني ظهر بفلسطين في بيسان مجدو منذ ٤٥٠٠ ق. م.

وهناك كنائس كثيرة منتشرة في ربوع فلسطين والأردن وسوريا وخاصة في طبريا وبيت لحم والقدس والناصرة، وهي تزخر بمختلف أنواع الفنون.

وقد أدى انتشار المسيحية إلى زيادة الطلب على الأقمشة الأرجوانية والمطرزة، حيث أصبح رجال الكهنوت يرتدونها، ومن هنا زاد الطلب على هذه الأقمشة المطرزة، كما جاء الحجاج المسيحيون إلى فلسطين وأخذوا معهم ملابس أرجوانية وملابس مطرزة تبركاً بها وهدايا. ولهذا انتشرت الأزياء الفلسطينية في ربوع العالم المسيحي، حتى الموسيقى وأزياء الرهبان الخاصة بالكنائس هي من تراث أجدادنا الكنعانيين.

وما أن حل ظهور الإسلام ودخلت جيوش المسلمين فلسطين رغم تغيير أسماء المدن الرئيسية بأسماء يونانية ورومانية وبيزنطية ابتداء من ٣٣١ ق. م وحتى ٦٣١م، فقد حفظ الأقدمون الأسماء العربية وأورثوها لأجيالهم قرابة ألف عام وعندما ظهر الإسلام وذهب الاحتلال، أعادوا إلى مدنهم أسماءها الكنعانية العربية ومنها: -أسدود-يافا-غزة-عسقلان-بيت جبرين-عقرون وغيرها الكثير وهكذا يتضح لنا عروبة فلسطين عبر التاريخ.

أهم المراجع:

(١) عبد الرحمن المزين–الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ–ص ٢٦١،٢٦٢.

(٢) نفس المرجع السابق–ص ٢٦٣.

(٣) د. فيليب حتي–تاريخ سورية ولبنان وفلسطين–الجزء الأول–مترجم–ص ٣٨٦ إلى ٣٩٨.

(٤) نفس المرجع السابق–ص٤٠٣، ٤٠٤.

(٥) محمد خليل نايل ومحمد أمين عبد القادر –تاريخ العمارة–الجزء الأول ص ٥٤٤، ٢٤٥.